

## القريب

ناداك: فَإِنِّي قَرِيبٌ، فلا تبتعد عنه يا حبيب

### أولاً: معنى اسم القريب

قال الشيخ السعدي:

« القريب أي هو القريب من كل أحد، وقربه نوعان:

**قرب** عام من كل أحد بعلمه، وخبرته، ومراقبته ومشاهدته، وإحاطته، وهو أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد.

**وقرب** خاص من عابديه، وسائليه، ومجيبه، وهو قرب يقتضي المحبة، والنصرة، والتأييد في الحركات، والسكنات،

والإجابة للداعين، والقبول، والإثابة.

وقرب الله قرب علم، وقرب قدرة..

فعلم الرب أقرب إلى العبد من قلبه الذي بين جنبيه؛ ولذا قال الله عز وجل:

{واعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}

وهو تمثيلٌ لشدة قرب الله تعالى من العبد، وتنبه على أن الله مطلعٌ على مكونات القلوب التي يغفل عنها صاحبها، وفيه حثٌ

على المبادرة إلى إخلاص القلوب، وتصفيتها قبل أن يباغتنا ملك الموت، فإنها حائلةٌ بين المرء وقلبه، أو أن ذلك تصويراً لتملُّك

الرب من قلب العبد، بحيث يفسخ عزائمهُ ويغيِّر نياتِهِ ومقاصدَهُ، ويحول بينه وبين الكفر إن إراد سعادته، أو بينه وبين الإيمان

إن أراد شقاوته؛ ولذا قال القشيري:

« في هذه الآية هيبه وفرع وخوف لقوم، وروحٌ وأنسٌ وسكون قلب لقوم»<sup>(1)</sup>.

### ثانياً: تأملات في قوله (فإني قريب)

{وإذا سألك عبادي عني فإني قريب}

وفي سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية.

والثاني: أنه لما نزل قول الله تعالى: {ادْعُونِي استجب لكم}.. قالوا: يا رسول الله، كيف ندعوه ومتى ندعوه؟ فنزلت

الآية.

وفي الآية تأملات مفيدة:

- أتى الله سبحانه بكلمة (إذا) المفيدة للمستقبل، فهي ظرف لما يُستقبل من الزمان، والسر في ذلك - والله أعلم - أن الله يستجيب لعبده في كل وقت، وليس في الماضي فحسب، فإن باب إجابته مفتوح، وخيره وجوده لسائل ممنوح.

- أن الله أضاف العباد إليه؛ لأن كل من في السموات والأرض عبيدٌ له، وتحت قهره وسلطانه.
  - ومن شأن العباد شدة حاجتهم ورجبتهم وطلبهم إلى ربهم، فلا غنى لهم عنه طرفه عين.
  - ولأن الصوم مظنة إجابة الدعاء؛ فقد جاءت هذه الآية عقب آيات الصيام.
  - وفي الآية قربٌ ما بعده قرب، وملاطفة ما مثلها ملاطفة، وكأن الله يقول: وإذا سألك عبادي عني يا محمد، فلا تجهم بلسانك، فإنك وإن كنت الرسول بيننا، فهذا الجواب لي وحدي، فأنا الذي أتولاه: «فإني قريبٌ».. أو كأنه قال:
    - عبدي، إنما تحتاج إلى الوسطة في غير الدعاء، أما في الدعاء فلا واسطة بيني وبينك!
  - وفي قوله: «فإني قريب» مجازٌ عن سرعة إجابته لدعوة من دعاه، **وإلا فإنه سبحانه متعالٍ عن القرب الحسي لتعالیه عن المكان.**
  - واقتران اسم القريب باسم المجيب واضحٌ ظاهر، فمن آثار القرب: (الإجابة للداعين، والإثابة للعبدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب **أيضاً** للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به **طمعاً ورجاءً وخوفاً**)<sup>(2)</sup>.
  - وقول ربنا (إذا دعان): أي إذا صدق في دعائه إياي، بأن شعر بشدة افتقاره إليّ، وأني قادر على إجابته، وأخلص لي الدعاء، فلم يتعلق قلبه بغيري.
  - والآية تتناول نوعي الدعاء دعاء العباد، ودعاء المسألة والطلب، ودعاء العباد شامل لكل القربات الظاهرة والباطنة؛ لأنَّ المتعبّد لله طالبٌ وداعٍ بلسان مقاله وحاله، وأما دعاء المسألة فهو أن يطلب الداعي ما ينفعه، وكشفٌ صُره.
- (1) وشرط إجابة الدعاء هنا: استجابتهم لأمر الله، فمن استجاب لله فليشتر بالزيادة من فضل الله {ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله} (الشورى: 26).

## ثالثاً: كيف التقرب إلى الله؟

### الأول: المحافظة على النوافل

قال تعالى:

«ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه».

فالمواظبة على النوافل دليل صدق المحبة، وبوابة القرب من (القريب).

وكلما كان العبد عليها أدوم كان إلى الله أحب؛ لأن (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)، ومن بلغ درجة الحب أسبغ الله عليه عطايا القرب.

## الثاني: السجود

قال رسول الله ﷺ:

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء»<sup>(3)</sup>.

(فأكثرُوا الدعاء): ولأنك قريب من الله في هذا الموضع، وهو مظنة الإجابة، فاغتنم الفرصة وأكثر من الطلب، وهذا الإكثار داعٍ إلى الإطالة، ومن الإطالة يأتي الخشوع، وقد أعاننا الله على هذا بأن نهانا عن الإسراع في السجود، وعبر عن السجود الخاطف الخالي من الخشوع بوصف: (نقر الغراب).

ومع القرب من الله سكينته الروح وغاية الراحة، وكيف لا وأنت قريب من أرحم الراحمين؟! وقد حكى الأستاذ عبد الحليم خفاجي أن رجلاً ألمانياً أسلم؛ لأنه رأى المسلمين يسجدون في الصلاة، فسأل عن هذه الهيئة التي كان كلما أراد الاسترخاء هوى إلى الأرض على نفس هيئة السجود، فلما رأى المسلمين يصلون بنفس الهيئة؛ سأل عن الإسلام حتى هداه الله إليه، فأسلم!

عرف ربه القريب من اغتنم سجوده، فرفع فيها حاجاته، وطلب مغفرة زلاته. ما عرف ربه القريب من نقر سجوده نقر الغراب، فلا تلذذ، ولا نال المراد.

لكن ماذا كان يقول رسول الله ﷺ في سجوده؟

### الدعاء الأول:

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمِيهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ»

نفسك»<sup>(4)</sup>.

### الدعاء الثاني:

في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده<sup>(5)</sup>:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّةَ وَجِلِّهِ، أَوْلَاهُ وَآخِرُهُ، وَعَلَايَتَهُ وَسِرَّهُ».

### ثالثاً: جوف الليل الآخر

قال رسول الله ﷺ:

« أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة، فكن»<sup>(6)</sup>.

(3) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح أبي داود رقم: 819

(4) صحيح: رواه مسلم عن عائشة كما في كتاب الصلاة باب أذكار الركوع والسجود رقم: 486

(5) وربما توهم العبد في سجوده قرب المسافة من الله، فندبه الله لهذا القول دفعاً لذلك الوهم، فقرب الله عز وجل ثابت له وهو في علوه؛ فهو

قريب منا وهو عال مستور فوق عرشه، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون معنا في المكان الذي نكون فيها، وعلى هذا فيجب الجمع بين

القرب والعلو، فهو العلي القريب، ويمكن أن تقول: هو قريب في علوه، علي في دنوه.

(6) صحيح: رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن عمرو بن عبسة كما في صحيح الجامع رقم: 1173

لأن العبد يقترب فيه من ربه، ويخلو به في الأسحار؛ لذا يكسوه الله من نوره..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أفضلية هذا الوقت:

« والناس في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجُّه والتقرب والرقة ما لا يوجد في غير ذلك الوقت، وهذا مناسب لنزوله إلى

سواء الدنيا، وقوله: هل من داع، هل من سائل، هل من تائب»<sup>(7)</sup>.

وفي رواية رائعة مسلم:

«...، ثم يبسط يديه ويقول: من يُقرض غير عدوم ولا ظلوم؟ حتى ينفجر الفجر»<sup>(8)</sup>.

نعم.. ينادي ربنا كل ليلة:

من يقدّم عبادته إليّ على سبيل الإقراض حتى أنعم عليه بالعرض؟

من يتاجر معي ولن يندم؟

ووصف الله نفسه بقوله:

(غيرِ عدوم) أي ربًّا غنيًّا، غير فقير.

(ولا ظلوم) أي لا يظلم بعدم وفاء الدّين الذي اقترضه أو بتأخير أدائه عن وقت سداه المستحق.

وخصّ الله هاتين الصفتين بالذكر؛ لأنها في الغالب ما يمتنع العبد من إقراض غيره، فانظر إلى تلطف الله في الطلب من عباده

وكانهم يقرضونه! ومخاطبته لهم بما يفهمون ويعايشون، مع كمال غناه عنهم وشدة افتقارهم إليه؛ وخصّ هذا النداء بوقت

السحر المبارك، وفيه إغراءٌ بجزييل ثواب الطاعة فيه مع عظمة العطاء!

وفي جوف الليل زاد المؤمن ومصدر قوته ونبع عزيمته، كما رآه عبد الرحمن العشماوي، فقال:

في جُنج هذا الليل أشعر أنني.. بك يا عظيم الشأن أقوى موقفًا

وأجسُّ أي حين أسجد أرتقي.. وأرى القويّ من الطغاة الأضعفا

وسبب هذه القوة أن المؤمن يعلم أن هذا الوقت أسمع للدعاء وأرجى لقبول ما يتمنى العبد.

قال عمرو بن عَبَسَةَ السَّلَمِيُّ رضي الله عنه:

قلت: يا رسول الله، أيّ الليل أسمع؟

قال:

« جَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَصَلِّ مَا شِئْتَ »<sup>(9)</sup>.

عرف ربه القريب مَنْ حرص على أن يكون قريبًا منه في وقت الأسحار بالصلاة والاستغفار.

ما عرف ربه القريب مَنْ لم يحرص على مقابلته في الأسحار، حين ينزل تنزلًا يليق بمقامه ذي الجلال.

فكيف بقرب ربّ البشر!؟

(7) مجموع الفتاوي 241/5

(8) صحيح: رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه رقم: 758

(9) صحيح أبي داود رقم: 1158

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

« استمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءتي من الليل، فلما أصبحت قال:

يا أبا موسى، استمعتُ قراءتك الليلة، لقد أوتيت **مزمارًا** من مزامير آل داود.

قلت:

يا رسول الله، لو علمتُ مكانك لحرّرتُ لك **تخييرًا**»<sup>(10)</sup>.

أي لحسّنت قراءتي لك **تحسينًا** وزيّتتها، فلو علم أبو موسى رضي الله عنه قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه لبالغ في تحسين قراءته وتجويدها، فكيف

بمن علم قرب الله؟!

كيف تكون قراءته؟!

وأي سقف يبلغ تدبّره؟!

وهل ينطلق الكلام **إلا** من قلبه ليفيض على لسانه؟

**رابعًا:** ترك ما يباعد عن الله

قال الحارث المحاسبي:

« من كان يحب القرب من الله، فليترك ما يباعد من الله تعالى»<sup>(11)</sup>.

فالقرب من الله في الآخرة يظهر في تفاوت الدرجات والمنازل، والمحبون أقربهم إليه إذ كانوا في الدنيا أشدهم **حبًا** له

وأقرب إليه، فكافأهم بأن قربهم في الآخرة، والقرب من الله في الدنيا تكليف، لكنه في الآخرة أعظم مكافأة وتشريف.

عرف ربه القريب **من** تقرب إليه بما يرضيه.

ما عرف ربه القريب **من** ابتعد عنه بمعاصيه.

**خامسًا:** الدعوة إلى الله

قال ابن الجوزي:

« ألسنت تبغي القرب منه؟! فاشتغل بدلالة عبادته عليه»<sup>(12)</sup>.

فكلما قربت **عبدًا** من الله كلما قربك الله منه، وكلما جذبت **عبدًا** إلى دائرة هداة؛ كلما جذبك لجواره وهدى مصطفاه.

عرف ربه القريب **من** سعى في تقريب العباد منه.

ما عرف ربه القريب **من** لم يكن له دور في تقريب الشاردين عنه إلى رحابه.

**سادسًا:** القرب الموسمي الاضطراري

عند نزول الظلم على العبد يكون الله **قريبًا** منه ولو كان **فاجرًا** أو **كافرًا**، فيسمع الله دعاءه، ويستجيب له.

(10) صحيح: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان رقم: 7197 - ط مؤسسة الرسالة، بيروت

(11) آداب النفوس 1/181 - الحارث المحاسبي - ط دار الجيل - بيروت - لبنان

(12) صيد الخاطر 1/52

وعند وقوع الاضطراب ونفاد الأسباب يكون الله أقرب إليك وينفتح لك الباب!  
وقد استجاب للمشركين حين ركبوا في الفلك، وأحاطت بهم الأمواج والأعاصير؛ **لَمَّا** دعوه مخلصين.  
وهذا قرب جمالٍ ورحمة بعباده، ولو كانوا بالعصيان قد بارزوه، وعاندوه وخالفوه!

## رابعاً: فادعوه بها عبادة وعملاً

1. سكينه القرب من الله

قرب الله يستلزم معيته، هي غير معية المراقبة التي قال الله فيها: **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}** (الحديد/ 4)، وإنما هي معية النصرة والتأييد والتسديد والإعانة والهداية كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام **{كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}** (الشعراء/ 62).

وقوله سبحانه لموسى وهارون **{إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى}** (طه/ 46).

وكما جاء على لسان نبينا ﷺ لأبي بكر في قوله تعالى **{لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}** (التوبة/ 40).

لكن المعية الربانية ليست **حِكْرًا** على الأنبياء بل **تَعَمُّ** الصالحين، فقد جعلها الله للمتقين والصابرين والمحسنين والذاكرين، فقال عز وجل: **{وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}**.

وقال عز من قائل: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}**.

وقال عن المحسنين: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}**.

وقال عن كل ذاك: **{وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي}**.

قال ابن القيم:

«والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة، وإنما تعلم بالذوق»<sup>(13)</sup>.

وكيف لا يسكن ويطمئن، والله (القريب) قريب منه؟!

قال قتادة: «من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله عز وجل معه فمعه الفتنة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل»<sup>(14)</sup>.

ولذا كتب بعض السلف إلى أخ له:

أما بعد.. إن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترحو؟! والسلام.

وهي مع هذا معية لطيفة لا تشعر معها بثقل وجوده، بل بالراحة مع وجوده.

2. الدعاء الخفي

(13) الوايل الصيب 66/1

(14) المقصد الأسنى ص 69

قال ابن القيم:

« فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب وتصوّر ذلك؛ أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أنّ من خاطب **جليساً** له يسمع خفي كلامه، فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، والله المثل الأعلى سبحانه، وقد أشار النبي ﷺ هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا؛ أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»<sup>(15)</sup>.

ومعنى اربعوا: هونوا عليها والطفوا بها، ولا تشقوا على أنفسكم، ولا شك أن الدعاء الخفي أبعد عن الرياء، وأقرب للقلب إلى الصفاء.

### 3. الخوف من القريب

سؤال هام:

ما وجه خوف الملائكة، وهم معصومون من الذنوب التي هي سبب الخوف؟، وما سبب شدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله؟!

والجواب على لسان جمال الدين القاسمي:

«أن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد؛ لأنه يُطالب بها لا يُطالب به غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره.

ونظير هذا:

أنّ المائل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفًا منه من البعيد عنه؛ بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما لا يُطالب به غيره؛ فهو أحق بالخوف من البعيد»<sup>(16)</sup>.

### خامسًا: فادعوه بها مسألة وطلبًا

إلهنا.. ضعفت قوتنا، وقلّت حيلتنا، فلا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك.

يا قريب..

إن أوحش قلوبنا البعدُ عنك، فأنسها بطاعتك ولذة القرب منك..

يا قريب..

نشكو إليك قسوة قلوبنا، وجود أعيننا، وكثرة ذنوبنا، وضعف توبتنا، وكثرة الكلام، وقلة العلم، وضعف العمل، وأقول المهمة، وخور العزيمة.

يا قريب..

(15) بدائع الفوائد 7/3

(16) سر الاستغفار عقب الصلوات ص 29،30- محمد جمال الدين القاسمي- طدار البشائر الإسلامية ببيروت- لبنان

ما من دابة **إِلَّا** أنت آخذ بناصيتها؛ فخذ بأيدينا ونواصينا إليك أخذ الكرام عليك..

يا قريب..

ارزقنا القرب منك في أحب الأوقات إليك، ولا تحرمنا عطاءك بالليل من أثر ذنوب النهار..

يا قريب..

أقرب إلى كل عبد من جبل الوريد. امنن علينا بلحظة من لحظات القرب، فلا نشكو بعدها وحشة البعاد وألم الطريد.

## **سادسًا: حاسب نفسك.. تعرف ربك**

هل تتقرب إلى الله بنافلة ثابتة من صدقة أو صوم أو صلاة بنية نيل القرب منه؟

هل تكثر الدعاء في السجود؟

هل تحفظ الأدعية الماثورة في السجود؟ وهل تحافظ عليها؟

هل تدعو إلى الله بنية تقرب العباد منه؟

هل تدعو ربك **سرًا** في خفاء؛ ليكون أقرب للصفاء، وأبعد عن الرياء؟

هل تحرص على قيام الأسحار، وتتقرب فيه إلى الله بالدعاء؟